المحاضرة السابعة

الحداثة الشعرية في الجزائر

تمهيد : إنّ المتأمل في المصطلحات الآتية : الجديد أو المعاصر أو الحديث سيلاحظ ذلك الصراع الإيديولوجي الذي استغله المتصارعون ، حيث أصبحت الحداثة أو الجدّة عند البعض الإيديولوجي تعني رفض القديم بما في ذلك الدين والقديم التي مازالت محتفظة بعناصرها الأساسية . وأصبحت الحداثة عند الوجه الآخر، تستمد قيمتها من كونها ترتبط بإيديولوجية معينة بغض النظر عن الجانب الفكري أو الفني هذه التيارات ما موقف النهضة الجزائرية منها ؟

الإستعماريون منذ عام 1830 حدّدوا للحداثة في الجزائر معنى واحدا هو الإنسلاخ عن الإسلام وعن الحضارة العربية ، والذوبان في الكيان الغربي لغة وأخلاقا وفكرا ، هذا الطرح الإستعماري جعل قادة النهضة في الجزائر والشعراء خاصة يحدّدون لمصطلح النهضة أو التجديد أو الحداثة معنى خاصا هو البعث الحضاري الإسلامي ورفض الحداثة بالمعنى الإندماجي .

حيثما التزم الشعراء الجزائريون بموقف واحد، هو اعتبار النهضة بعثا حضاريا شاملا يغني عن حضارة المستعمرين ، من هذا الإطار عبّر الشعراء عن قضايا وطنية وقومية وإسلامية .

الشعر الجزائري وفلسفة الحداثة : إنّ الحديث عن بدايات الشعر الجزائري في العصرين الحديث والمعاصر، يحيلنا إلى التركيز على مصطلح المحافظة فقد كان الشعر الجزائري في بداياته محافظا شكلا ومضمونا يقول محمد ناصر: « ظلّ مفهوم الشعر عند الشعراء المحافظين مرتبطا إرتباطا وثيقا بمفهوم النقاد العرب القدامى »① ، وهذا ما جعل الشعراء الجزائريين والإصلاحيين يعيشون فترة « أحياء حقيقية » ، ممّا جعلهم يصدرون في نظرتهم إلى الشعر وماهيته ، عن نظرة تحاول « أحياء تراث الأدب العربي أحياء كاملاً ، ولم يكن ذلك موقف الشعراء الإصلاحيين وحدهم وإنّما هو موقف عرفه النقد في المغرب العربي كلّه .

---

① . محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ، اتّجاهاته وخصائصه الفنية (1925 - 1975) ص 66 .

يقول عمر بن قينة: « تدخل حداثة الأدب الجزائري ضمن الحداثة في الوطن العربي المرتبطة بما يسمّى عهد النهضة، التي تختلف كلّ الاختلاف عمّا يسميه عهد النهضة في أوربا الذي يعقب القرون الوسطى ابتداء من القرن السادس عشر عصر شكسبير (1564 - 1616) »①

فقد ظلّ شكل القصيدة في الشعر الجزائري قبل عصر النهضة، يجري على نمطه الذي كان سائدا خلال العصر العثماني، محافظا على شكل القصيدة التقليدية سواء في بحورها أو قافيتها.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أخذت النهضة الفنية في الشعر بتغيير نمطه وكانت أهم تجديداته متصلة بالموضوعات وإن ظلّ شكل القصيدة يتبع القالب التقليدي.

يقول محمد اللقاني بن السائح في قصيدته عالى الشعب الجزائري التي نشرت في جريدة الإقدام سنة 1920:

بنو الجزائر هذا الموت يكفينا	لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا
بنو الجزائر هذا الفقر أفقدنا	كلّ اللذائذ حينا بعد حين
بنو الجزائر قومي استيقظوا فلكم	أضاقنا اللهو والإهمال تهوينا
فقر وجهل وآلام ومسغبة	يا ربّي رحماك هذا القدر يكفينا
ألم تكن أمة أعلى الورى حسبا	ألم تكن أزكى الورى دينا

فالواضح أنّ النزعة الوطنية التي عبّر عنها محمد اللقاني في هذه القصيدة ليست الوطنية الترابية الضيقة، وأنّ ما يدعو إليه من اليقظة يتجاوز معنى الإصلاح للأوضاع إلى معنى استعادة الحضارة للأمة العربية عامة.

المهم أنّ الشعراء الجزائريين نظروا إلى الحداثة الشعرية بنظرة واعية متروية، حافظوا على تقاليدهم الإيجابية، وجددوا في القصيدة العربية من خلال مواكبة أحداث العصر، دون الإضياع وراء

---

① - عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث - تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما ص 09.

العقاد العربية ، ومن هؤلاء الشعواء الذين وصفوا أسس الشعر الجزائري المعاصر أذكر : محمد العيد آل خليفة ومفدي زكرياء وعز الدين ميهوبي وسليمان جوادي وعثمان لوصيف ... الخ .

يقول الشاعر عز الدين ميهوبي في قصيدته "قافية" على قبر النخلة الناسك "

أمير الشعر لا تقرأ عيوني * فإن الجرح في عيني لاح
نجرعنا الدم العربي خمرا * وصغنا من جماجمنا قداحا
وشردنا الكرامة في ديار * تسامت بعد عزتها افتضاحا
تقاسمنا الهزائم وانتشينا * وداعبنا ضفائرنا انشراحا
وخدرنا الصغار بألف نصر * وكان النصر في دمنا مزاحا
هوت بيروت فانتفضت عناظ * وقام الشعر يعتصر امتداحا
وحاصرنا اليهود ببيت شعر * ولم كانت قصائدنا سلاحا

فالشاعر لم تفته القضايا المعاصرة - بعد الاستقلال - لأن موقفه نابع من مشاعر الشعب ، وإيمانه الصادق بقضاياه وقضايا أمته ، كان وراء هذه الرؤية الحداثية للقصيدة الشعرية .